

المرحلة الأخلاقية

الفصل الخامس

● تمهيد :

إن الإنسان فى المرحلة الجمالية، قد ينسى ذاته فى المتناهى، الذى يمثل حدًا كابدًا لذاته، وعنصرًا خارجًا عنها، وذلك لأنّ الفرد الجمالى - فى المرحلة الجمالية - يحيا فى أحلام رومانتيكية، مرتبطًا بالمباشرة الحسية، ارتباطًا وثيقًا، حيث يطابق ذاته مباشرة مع هذه الأحلام (التي يحيا فيها)، ومن ثم تصبح مقيدة بهذا المتناهى. وعلى ذلك يصير الفرد - فى هذه المرحلة - عبدًا للصدفة التى ربما تمن عليه بكثير من الفرص، فيمارسها طلبًا للاستمتاع، فى حماسة زائدة.

ومن هنا يشعر الفرد بغربة عن العالم الذى يحيا فيه، بل ويشعر أيضًا بعدم جدوى هذا العالم بالنسبة له. وقد تضيع الذات أيضًا (فى المرحلة الجمالية) فى اللامتناهى، والخيال، والإمكان، حيث يرتبط تفكير الفرد فى هذه المرحلة بالإمكان ارتباطًا وثيقًا، إذ من خلال هذا الفكر، يتخيل الفرد البدائل المختلفة التى يستطيع أن يحققها. غير أن هذا التفكير فى الممكنات، لا يمكن أبدًا أن يختلط بالتحقق الفعلى لهذه الممكنات. معنى هذا، أن الذات فى هذه الحالة تسقط فى الهاوية، ويعانى الفرد من ضياع ذاته فى مجال الممكن. وهنا يصبح هذا الفرد - أيضًا - غريبًا عن عالم الواقع الذى حرم نفسه منه، حيث يصير هذا العالم بلا مغزى بالنسبة له.

على ذلك، لا توجد فى المرحلة الجمالية بطرفيها المتناقضين، ذات حقيقية. ليس هناك شىء يمنع الفرد من الخضوع طوال حياته لسيطرة الحس والشهوة، ولا توجد ضرورة خارجية تحتم عليه الخروج من هذا المستوى المتدنى إلى مستوى أرفع من الحياة. لكن الضرورة التى تدفعه إلى الانتقال من سيطرة الحس والشهوة، إلى المرحلة الأخلاقية، هى ضرورة تتوقف على نمو الوعى الذاتى عنده (1).

وعندما يصبح الفرد فى المرحلة الأخلاقية، يكون قادرًا على اتخاذ القرار، فإذا كانت السمة الأساسية للمرحلة الجمالية، هى غياب ممارسة حرية الذات فى القرار، فإن السمة الأساسية التى تميز المرحلة الأخلاقية هى انبثاق القرار. وإذا كان

"كيركجور" يرى، أن الزمان هو العملية التي تتحقق بها الإمكانيات بالفعل من خلال القرار، فإن تطور الذات - الذى يعبر عن قدرتها فى اتخاذ القرار المسئول - يمثل خطوة ذات مغزى فى عملية التفرد. لذلك، تعتبر مقولة القرار، مقولة هامة فى المرحلة الأخلاقية، وترجع أهميتها، إلى أنه يوجد عند كيركجور تميز بين مستويين للقرار:

المستوى الأولى: يتضمن ما يطلق عليه كيركجور "اختيار الذات".

المستوى الثانى: وهو حالة أساسية بالنسبة للمستوى الأول، حيث يعبر عن عزم الفرد على الكفاح من أجل تحقيق هدفه الأخلاقى.

ويمثل هذان المستويان للقرار، أساساً للذات الفردية⁽²⁾، حيث إنهما يعبران عن ارتباط مقولة القرار - عند كيركجور - بمقولة الاختيار التى هى شرط ضرورى لاتخاذ القرار، كما أنهما يمثلان تفسير المرحلة الأخلاقية بوصفها مرحلة يمر من خلالها تطور الذات، وكذلك على أنها نموذج مثالى للشخصية من الممكن رؤية الحياة من خلاله.

معنى هذا، أن للمرحلة الأخلاقية عند كيركجور سمتين هامتين:

السمة الأولى: طبيعة الاختيار الأخلاقى.

السمة الثانية: غاية الحياة الأخلاقية.

وتتعلق السمة الأولى، بصياغة الموقف الأخلاقى للفرد، والسمة الثانية يعتبرها كيركجور الأداة الذاتية لهذا الموقف⁽³⁾.



1. طبيعة الاختيار

تتركز الحكمة الأخلاقية الكيركجورية، داخل المبدأ الفريد "اختر ذاتك" Choose Thyself، فمن هذا المبدأ يتجلى معنى مزدوج للأخلاق عند كيركجور، من حيث إنها مهمة للفهم الذاتي، ومن حيث إنها مرحلة للوجود الإنساني. ويرسخ الاختيار، موضوع التطور الجدلي للروح، وحدوده، بمعنى أن الفرد في الاختيار يفهم ذاته بوصفها مهمة أخلاقية، والحركة التامة للروح من خلال تطور الفهم الذاتي، راجعة إلى الاختيار. على ذلك، يعد الاختيار مشكلاً لمهمة الفهم الذاتي، وموضوعاً لهذه المهمة ذاتها (4).

« يعرف الفرد الأخلاقي ذاته، لكن هذه المعرفة ليست مجرد تأمل ... بل هي تأمل في ذاته، هي نفسها فعل، وبناء على ذلك، أني أفضل استخدام تعبير "اختيار الفرد لذاته"، بدلاً من "معرفة الفرد لذاته" (5)

إنه في تعبير كيركجور "اختر ذاتك"، تحديث للتعبير السقراطي "أعرف نفسك" Knows Thyself، حيث يرى أنه على الإنسان أن يختار ذاته في شرعية (أو صحة) أبدية (6). إن الفرد الذي يختار ذاته أخلاقياً، يختارها بطريقة عينية بوصفها هذا الفرد المعين، على هذا النحو يصير واعياً بذاته.

هكذا نتبين أن اختيار الفرد لذاته، يرتبط بمعرفته لذاته، بمعنى أن السعي وراء المعرفة الذاتية، هي سمة فعل اختيار الفرد لذاته، ويرى كيركجور، أن هذه المعرفة، ليست تأملية ولا موضوعية، لذلك استخدام تعبير "اختر ذاتك"، بدلاً من التعبير السقراطي "اعرف نفسك".

والذات التي يختارها الفرد، تجمع في آن معاً بين عاملين أنطولوجيين من تكوين الذات وهما "الواقع" أي ما هو عليه بالفعل، و"المثال" وهو ما ينبغي أن يكون عليه. ويتطلب الوعي الأخلاقي، الفعل القصدى الذي يربط بين هذين العاملين. وهذا

يبرز ما يعنيه كيركجور، بأن، على الفرد أن يختار ذاته في شرعيتها، أو صحتها الأبدية. ويعبر الفعل القصدى عن عملية الاهتمام، ولا يستطيع الفرد أن يلغى الاختيار، وذلك عندما ينصب اهتمامه على اختيار ذاته، بمعنى إما أن يختار أن يصير ذاته، أو يختار ألا يكون ذاته. ولكن من أجل أن يصبح الفرد، وجوداً عينياً أخلاقياً، يجب أن يدرك أنه، وبمفرده مسئولاً عما يكونه بالفعل، وعما يصير إليه. وتعتمد رؤية "كيركجور"، فى اختيار الفرد لذاته، على تصوره لعينية وجود الذات، فالحركة الأخلاقية - كما يتصورها كيركجور - ليست فعلاً ذهنياً، وليست موضوعاً لمعرفة، كيف يمكن أن يحيا الفرد، لكنها بالأحرى نزعة يتكيف فيها الفرد شعورياً وذاتياً تجاه تحول الذات من المرحلة الجمالية إلى المرحلة الأخلاقية (7).

« ما هي هذه الذات، أو ما هو أنا؟ لو كنت أحتاج إلى تحديد هذا، فسوف تكون إجابتى الأولى، هي أعظم تجريد للأشياء كلها، وفى الوقت ذاته هي أعظم عينية، أنها الحرية » (8)

يرى كيركجور، أن الذات مركبة من اتصال "الواقع" و"الإمكان" خلال الحرية فى لحظة القرار، بمعنى أنها ليست مجرد إمكانية غير مقيدة، وكذلك ليست مجرد مجموعة من الوقائع الطبيعية، بل إنها ذات عينية تجمع بين هذين العاملين، وذلك من خلال تكيف الواقع الفعلى مع الممكنات المنفتحة على الذات. والذات التى يختارها الفرد، هى الحرية، وتبعاً لذلك يجب أن يكون الاختيار، اختياراً مطلقاً.

« لكن ماذا أختار، هل هذا الشيء أم ذلك؟ لا أنى أختار على نحو مطلق، ومطلق اختيارى يكون واضحاً بحقيقة أنى ليس لدى اختيار أن أختار هذا أو ذلك. أنى أختار المطلق، وما هو المطلق؟ إنه ذاتى فى شرعيتها الأبدية » (9)

يرى كيركجور، أنه لكى يكون الاختيار مطلقاً، يجب أن يختار الفرد ذاته بوصفها عينية بشكل لا متناه. ويتحقق هذا عندما، يتم تصور العامل المتناهى فى الذات، على أنه مطلب لا متناه، وذلك عن طريق علاقته الجدلية بالعامل اللامتناهى.

على ذلك، يجب أن يصبح الفرد مهتمًا بإمكاناته، من أجل تحقيق الاختيار، والقرار، والفعل. وقبل أن يحاول تحقيق هذه الممكنات، يجب أن يضعف وعيه الذاتي، حتى يستطيع معرفة ما هو عليه بالفعل، وما ينبغي أن يكون عليه، وذلك من خلال قدرته على اتخاذ القرار، الذي يعبر عن تحقيق فعل الاختيار. ومن هنا يصبح كل من القرار والاختيار مقولات أساسية للوجود الأخلاقي. ويؤكد كيركجور، على أنه، يجب على الفرد أن يرجع عملية إدراك الإمكانية التي يريد تحقيقها، إلى الوعي، حتى يمكنه أن يختار اختيارًا وجوديًا روحياً، يكون وثيق الصلة بتطور شخصيته أخلاقياً. وبهذا المعنى يصبح الفرد مهتمًا بأن يختار ذاته بشكل مطلق، ذلك لأنه يختار ذاته الخاصة، ولا يختار ذاتاً أخرى.

« إنه يختار ذاته، ليس بمعنى متناه (ذلك لأن هذه الذات سوف تكون شيئاً متناهياً برفقة أشياء أخرى متناهية) ولكن بمعنى مطلق. في الواقع إنه يختار ذاته، وليس شيئاً آخر، هذه الذات التي يختارها، ذات عينية لا متناهية، تتميز بكل ما في الكلمة من معنى، عن ذاته السابقة، لأنه قد اختارها بالفعل»⁽¹⁰⁾

هكذا يعد اختيار الفرد لذاته، اختياراً أخلاقياً، يتعلق بالذات العينية، بوصفها ذاتاً معينة تعيناً وجودياً. ومن ثم يمثل الاختيار الذاتي، رفضاً واعياً لسلطة التجريد، ورفضاً لاستقلالية المرحلة الجمالية.

يتم اختيار الفرد لذاته أخلاقياً، في حركتين جدليتين:

الحركة الأولى: تعبر عن تحقيق إمكانية الاختيار.

الحركة الثانية: تعبر عن عملية اتحاد الوعي، أي اتحاد بين العامل المتناهي في الذات (التمثل في واقعها الفعلي) والعامل اللامتناهي في الذات (التمثل في مطلب الفرد الأخلاقي من خلال فعل الحرية).



2- جدل الاختيار

يرى "كيركجور"، أن إمكانية الاختيار لا يمكن إلغاؤها، ذلك لأن إلغائها، يدل على أن الفرد سوف يسمح للآخرين أن يختاروا له، وهذا ما يعرف بالاختيار السلبي، أو الاختيار الزائف الذى يعبر عن سمة اللاوعى للفرد. وتدل عملية اختيار الفرد لذاته الخاصة، التى يكافح من أجل تحقيقها، على أن هذا الفرد لا يجرد ذاته من واقعها الفعلى، بمعنى أن الذات تكون على وعى بذاتها، بوصفها نتاجاً لبيئة معينة طبيعية واجتماعية. وفى هذا، لا يعتقد كيركجور، أن الذات - فى عملية اختيار الفرد لذاته - لا تشكل ذاتها، وإنما تتشكل عن طريق الله.

« إن علمية الاختيار - فى هذه الحالة - تتم بحركتين جدليتين: فما اختاره ليس موجوداً، ويظهر إلى الوجود، من خلال الاختيار، ومع ذلك فما اختاره يوجد، وإلا لما أمكن أن يكون هناك اختيار، لأنى لو كنت اختار ما لا وجود له، وأظهره إلى الوجود عن طريق عملية الاختيار، لكنت فى هذه الحالة لا اختار بل أخلق، ولكنى لا أخلق ذاتى، بل اختار ذاتى. ومن ثم بينما تكون الطبيعة مخلوقة من العدم، وبينما أنا ذاتى (بوصفى شخصية مباشرة) قد خُلقت من العدم، فإننى كروح حرة (ذات)، قد ولدت من مبدأ التناقض أو ولدت بحقيقة أنى اختار ذاتى» (11)

تعتبر عملية الاختيار - فى هذه المرحلة - وسطاً بين معرفة الإنسان لذاته، وبين خلق الإنسان لذاته. فإذا كان من المبالغة أن نقول، إن الذات تخلق ذاتها، فمن التقليل أكثر مما ينبغى أن نطالب الذات بأن تعرف ذاتها فحسب. وكلما تطور الفكر، أصبح الوعى الذاتى متطوراً، بمعنى أنه لا بد أن يكون الفرد فى تفكيره الذاتى،

على وعي بذاته، بوصفها نتاجاً لبيئة معينة (طبيعية واجتماعية) ⁽¹²⁾. فالفرد في الاختيار، يختار ذاته بشكل مطلق، لكنه لا يصير بهذا الفعل إنساناً آخر غير ما كان من قبل، بل تصير ذاته، وعياً متطوراً، يوجد بين الواقع الفعلي (للذات)، والمطلب الأخلاقي، الذي تريد تحقيقه. من ثم يعد نوع الاختيار، الذي يختار فيه الفرد ذاته، اختياراً مهتماً بالسيورة الذاتية Self becoming. ويتم تحقيقه عن طريق مضاعفة الوعي. وإذا ما فشلت عملية اختيار الفرد لذاته، أو إذا لم تنجح محاولاته في تحقيق وجهة النظر الأخلاقية عن الحياة، فإن السبب الوحيد لعدم نجاح المحاولة، هو أن الفرد اختار ذاته في عزلة، أو اختار ذاته على نحو مجرد. بمعنى أن الفرد في هذه الحالة، لا يختار ذاته على نحو أخلاقي، حيث لم يرتبط بالواقع، لأن من يختار ذاته أخلاقياً، يختارها بطريقة عينية بوصفها هذا الفرد المعين.

ويمثل اختيار الذات بوصفها عينية، اختياراً للذات بوصفها حرية، فعندما يختار الفرد ذاته، يظهر فعل الحرية إلى الوجود ⁽¹³⁾. ولكن مع ذلك تشتمل هذه الحرية على سمة مجردة، لأن الفرد يكون قد اختار ذاته، بوصفها وجوداً متناهيًا، في مقابل مطلب أخلاقي لا متناه. بمعنى، أن الفرد، لو اختار ذاته بوصفها إمكان، فإنه يكون قد اختار إمكانية الاختيار فحسب، أي أنه لا يختار ذاته، على أنها ذات عينية (على وجه الخصوص مثلاً كون الفرد سياسياً، أو موسيقياً، أو فيلسوفاً، أو رجل اقتصاد)، وإنما يختار ذاته بالمعنى الأكثر تجريدًا للوجود، أي الوجود المتناهي، الذي يصبح في مواجهة مع الاختيار المطلق المتمثل في المطلب الأخلاقي اللامتناهي.

لكن عندما يظهر المطلب الأخلاقي، يصير الفرد في مواجهة الاختيار المطلق، أو الاختيار الذي من خلاله، يختار الفرد الخير أو الشر، أو من خلاله يستبعد الخير أو الشر ⁽¹⁴⁾. وعلى هذا يعتبر الاختيار الأخلاقي، اختيار الاختيار ذاته (اختياراً عينيًا).

« إن ما يظهر في كتابي - إما - أو، هو الأخلاقي، لا يعني هذا تساؤلاً عن اختيار شيء ما على وجه الخصوص، ولا يعني أيضاً تساؤلاً عن الحقيقة الواقعية للشيء المختار، وإنما يعني الحقيقة الواقعية لفعل الاختيار » ⁽¹⁵⁾

إذن، فالفرد يصير حرًا في أن يختار، إما أن يحيا في المرحلة الأخلاقية، أو لا؛ لويختار ألا يحيا في المرحلة الأخلاقية، يعنى - بالنسبة لكيركجور - أنه لديه اختيارًا إلا يصير ذاتًا، اختيار حياة اللامسئولية، بمعنى اختيار ألا يحيا وجودًا عينيًا أصيلاً⁽¹⁶⁾. لكن الذات بوصفها حرية، تشتمل على وجودٍ يعبر عن حريتها في اتخاذ القرار. بمعنى أن الفرد الذى يختار ذاته بحرية، لابد أن ينتقل من المرحلة الجمالية إلى المرحلة الأخلاقية. ويعبر الاختيار عن الحرية، التى هى إمكانية عينية للذات. ويرتبط فعل الاختيار، بالوعى الذاتى الملىء بالاهتمام، الذى يجعل الفرد مهتمًا بالتناقض داخل ذاته بين الواقع والمثال، ومن ثم يقوى لديه نوع الاختيار المتعلق بالضرورة الذاتية، والذى يحقق من خلاله إمكانات ذاته. على ذلك لا يمكن أن يوجد الاهتمام، بدون المعاناة فى الفعل، وبدون الرغبة فيه.

« تعد عاطفة المعاناة أخلاقياً، عاطفة مهتمة، يتم التعبير عنها خلال التحول الإيجابى لوجود الفرد العينى التام، وذلك فى مطابقة مع موضوع الاهتمام»⁽¹⁷⁾

هكذا، يختار الفرد ذاته، كما هى معطى له عن طريق البيئة أو المواهب الطبيعية المختلفة ... إلخ، ويدل هذا الاختيار، على أن الذات التى تم اختيارها، كانت موجودة وسابقة على عملية الاختيار، (وفى هذا تأكيد لاعتقاد كيركجور بأن تشكيل الذات يتم عن طريق الله)، وكذلك يؤدى هذا الاختيار، إلى تغيير ذى مغزى فى الذات (نتيجة لهذا الاختيار)، حيث يعبر هذا التغيير عن أهمية الاختيار بالنسبة للفرد.

ولكى يختار الفرد ذاته الخاصة، لابد أن يفهمها أولاً (بوصفها تشمل جميع العناصر المكونة للذات)، ثم يختارها ثانيًا. والاختيار بهذا المعنى، يتضمن قدرة الفرد على أن يصير ذاتًا، أى أن يقر بالمسئولية من أجل هذه الذات. ويرى كيركجور، أن القرار السابق، على فعل ذلك الاختيار، هو ذاته اختيار.

ومن هنا تظهر بوضوح البنية الجدلية للاختيار، فقبل أن يصير الفرد واعياً بذاته، ويختار ذاته الخاصة - من خلال القرار - كانت هذه الذات فى حالة

المباشرة. التى تعنى عدم وجود توسط، لا بالفكر، ولا بالقرار، ولكن عندما يتطور الفكر يتم إلغاء المباشرة، إذ تصبح الذات بذلك واعيةً بذاتها، ويصبح القرار ضروريًا لاختيار الذات.

ويرى كيركجور فى ذلك، أن البنية الجدلية للوجود الإنسانى، تأتى إلى الوجود مع الاختيار، فبمقدار ما يكون لدى الفرد فهم لذاته، يستطيع تحقيق البنية الجدلية لوجوده العينى بشكل تام.

معنى هذا، أن اختيار الفرد، يعد اختيارًا مطلقًا، لأنه يدل على اهتمام الفرد الذاتى، الذى يعبر عن مطلبه الأخلاقى، والذى يعتبر السمة المميزة للوجود الإنسانى فى المرحلة الأخلاقية (18).

على ذلك، فإنه لكى يحقق الفرد المطلب الأخلاقى للوجود، لابد أن يصير ذاتًا من خلال كفاحه الدائم، ومن خلال ظهور قدرته على اتخاذ القرار، الذى يؤدى إلى صنع الاختيار المطلق، ومن ثم يتضاعف وعيه الذاتى، وتتحقق فردانيته.

يوضح الاختيار المطلق للذات فى شرعيتها الأبدية، أنه اختيار غير مشروط، يرتبط ارتباطًا وثيقًا باختيار وقائية الذات، أو تلك الجوانب التى تنتمى إليها بالضرورة، أعنى تلك الجوانب التى لا تخضع لقرارات الفرد الخاصة، لأنها تنتج عن مؤثرات البيئة، ولا يمكن للذات أن تغيرها، بل لابد أن تعترف بها وأن تقبلها.

« إن الفرد الذى يختار ذاته أخلاقيًا، يختار ذاته عينيًا، على أنه هذا الفرد المعين، ويحرز هذه العينية، بحقيقة أن فعل الاختيار يتحد فى هوية واحدة مع فعل الندم الذى يجيز الاختيار. هكذا يصبح الفرد واعيًا بذاته، بوصفه هذا الفرد المعين، بهذه المواهب، وهذه الاستعدادات، وهذه الميول، وهذه الانفعالات، متأثر بهذه البيئة المعينة، بوصفه هذا الناتج المعين للبيئة المعينة. لكن الوجود الواعى بذاته - بهذه الطريقة - يفترض المسؤولية من أجل هذا كله ... » (19)

يتصل اختيار الذات أخلاقيًا عند كيركجور، بمعرفة هذه الذات، حيث يرى

أنه من الواجب على الفرد من ناحية، أن يعرف ذاته فى كل تحديداته العينية، ومن ناحية أخرى، لابد أن يدرك الذات المثالية، التى تعبر عن الإمكانية فى ذاته. معنى هذا، أنه يجب على الفرد، معرفة ذاته بوصفها مركباً من الواقع والمثال. ومن ثم، فالذات التى تعرف لابد أن تختار، فمع اختيار الفرد لذاته تنبثق الذات بوصفها وعياً ذاتياً وفرداً مسؤولاً، من خلال فعل الحرية (20).

وهنا يظهر المستوى الأول للقرار، الذى يعبر عن "اختيار الذات".

يرى كيركجور، أن الفرد الأخلاقى، فى اختيار لذاته، يجب أن يسيطر على وجوده المعطى. وهنا تظهر مفارقة، ذلك لأن الفرد يقبل - فى اختياره - ما هو مفروض عليه من عوامل خارجية موروثية لا يستطيع الفكك منها، وإلى جانب ذلك، يعد مسؤولاً عن تغيير هذه العوامل. لهذا لابد أن يعرف ذاته، معرفة ذاتية، كافية من أجل اختيار إمكانات، يستطيع من خلالها تغيير هذه العوامل، حتى يمكنه تحقيق وجوده الذاتى الأصيل.

« تعد هذه العينية، حقيقة الفرد، ولكن عندما يختارها فى هوية مع حريته، يستطيع أن يقول إنها إمكاناته أو (بالغاء تعبير الجمالية) إنها مهمته » (21)

عندما يختار الفرد ذاته، يصبح واعياً بعامل الضرورة فيها، كذلك يصبح واعياً بعلاقته الوثيقة بالجنس البشرى، والتاريخ، ومن ثم تعد هذه الذات، ذاتاً مقيدة، بواسطة خصائصها العينية أو الوقائية، وما تتأثر به من علاقتها بالجنس البشرى. وهكذا تصبح على وعى بضعفها الخاص، وضعف الجنس البشرى الذى كانت عضواً فيه، ونتاجاً له.

ويعبر هذا الضعف عن الشر، الذى ترتبط به الذات (من خلال وقائعتها وعلاقتها بالجنس البشرى) والذى يعد جزءاً من عينيتها، ومن ثم تندم عليه. ولهذا السبب يؤكد كيركجور، على أن عملية اختيار الفرد لذاته، تتضمن الندم (22).

يقول كيركجور فى ذلك، على لسان "القاضى فلهلم" وهو يتحدث عن طفله:

« سوف تأتي لحظة في حياته، تنضح فيها روحه بواسطة الاختيار، عندئذ سوف يختار ذاته، سوف يندم على كل ما ارتكبه من أثم في حياته. وأنه لجميل من الابن أن يندم على أخطاء أبيه. لكنه لن يفعل هذا من أجل، بل يفعله من أجل أن يختار ذاته » (23)

لا يستطيع الفرد في اختياره لذاته، أن يتقبل جوانب معينة من وقائعات ذاته، ومعطياتها، ويستبعد جوانب أخرى، بل لابد أن يتقبل ذاته في وجودها العيني بأسره بما فيها من جوانب تدل على الشر. ولا يعد الشر الذي يندم عليه الفرد في اختياره، نتاجاً لفعله الخاص، وإنما هو شر تعانى منه ذاته نفسها. بمعنى، أن هذا الشر الذي يكمن داخل الذات، هو نتيجة لعوامل تخرج عن سيطرة الفرد، وهو لا يقلل من آلام الفرد عندما يتقبل ذاته وهي في هذه الحالة.

وهذا القبول، هو الذي يجعل عملية اختيار الفرد لذاته، مسألة على هذا القدر من الصعوبة. وإذا ما فهم الفرد ذاته، على هذا النحو، قبل ذاته، وعندئذ فقط يستطيع أن يسير نحو القرار، الذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالاختيار. هذا الاختيار يعد بدوره شرطاً ضرورياً لاتخاذ القرار، وذلك لأن عملية تحقيق إمكانات الذات، مشروطة بواقعها. بمعنى أن الفرد في تحقيق إمكاناته الذاتية، لابد أن يفهم ذاته، ولابد أن يكون قادراً على اتخاذ القرار في أن يصير ذاتاً.

وهنا يبدأ المستوى الثانى للقرار⁽²⁴⁾، الذي يعبر عن عزم الفرد على أن يحاول تحقيق تلك الممكنات التي تتناسب مع وجوده الفعلى.

على ذلك، نستطيع إن نقول أن المستوى الأول للقرار، يعبر عن رؤية المرحلة الأخلاقية، بوصفها مرحلة يمر من خلالها تطور الذات، ويعبر المستوى الثانى للقرار عن رؤية المرحلة الأخلاقية، بوصفها نموذجاً مثالياً للشخصية، من الممكن أن يتم من خلاله رؤية الحياة.

ولكى يحقق الفرد إمكاناته، لابد من وجود مبدئٍ مرشدٍ يسترشد به في اختياره للإمكانات التي يريد تحقيقها، والتي لا يريد تحقيقها بحيث يفرق بينهما. ويعتبر هذا

المبدأ، مبدأً ضرورياً للفرد الذى يختار ذاته أخلاقياً، حيث يسعى إلى تجسيده فى حياته، من خلال الالتزامات الأخلاقية، التى ارتبطت بالجنس البشرى بصفة عامة. بمعنى أن الفرد يحاول - عن طريق هذا المبدأ - أن يصبح الإنسان العام أو الإنسان النموذجى.

« من ينظر إلى حياته نظرة أخلاقية يرى العام، ومن يريد أن يحيا حياة أخلاقية يعبر عن العام فى حياته، بمعنى أنه يجعل ذاته إنساناً عاماً، لا بأن يغرق فى العينية، لأنه عندئذٍ يصبح "لا شيئاً"، بل بأن ينفذ فى ذاته العام»⁽²⁵⁾



3. تحقق الذات

تعبّر حركة الانتقال من المرحلة الجمالية، إلى المرحلة الأخلاقية، عن عملية تحقيق الفرد لذاته، فبعد أن كان الفرد في المرحلة الجمالية، غير قادر على اتخاذ القرار، وحرّيته مقيدة بعوامل البيئة المحيطة، وبعديد من الإمكانيات التي ليس لديه قدرة على تحقيقها، يصبح في المرحلة الأخلاقية، قادراً على اتخاذ القرار الذي يعد خطوة هامة في تأكيد فردانيته، وتحقيق ذاته.

على ذلك، تتحدد مشكلة تحقيق الفرد لذاته، في أنه لا يستطيع أن يعرف ما يفعله لكي يحقق ذاته، ما لم يكن لديه معرفة أولية عن الواقع الفعلي لهذه الذات، هذا فضلاً عن تحقيق الفرد لذاته، لا يتم إلا من خلال التصميم (العزم)، والاختيار، والقرار، والفعل، التي تعد مقولات أساسية في المرحلة الأخلاقية.

ويرى كيركجور، أن خروج الذات من حالة الإمكان، إلى التحقق الفعلي في المرحلة الأخلاقية، يعني أن تكشف عن نفسها، وأن ترفع قناع التخفي الذي كانت تستر وراءه في المرحلة الجمالية⁽²⁶⁾. لكن لا يمثل هذا، ماهية الذات التي تتحقق بالتدريج في المرحلة الأخلاقية، وإنما يعبر عن تحديد الفرد لذاته بذاته، عن طريق الصيرورة التاريخية.

وهنا نلاحظ أن، كشف الذات عن نفسها، يعبر عن معرفة الفرد لذاته، التي تعد - عند كيركجور - سمة أساسية في اختيار الفرد لذاته. فعندما يكون للفرد تاريخ، من خلال ممارسته للإرادة، واتخاذ القرار، فإن ذلك يعني أن الفرد قد بدأ يعرف ذاته⁽²⁷⁾. ووفقاً لهذه الرؤية، يستطيع الفرد أن يخلق استمرارية من أجل حياته، كما يستطيع أن يؤثر في تطورها. فبمقدار ما يكون الفرد مسئولاً عن أفعاله (بالنسبة لصيرورته الذاتية) يستطيع أن يلائم الصفات التي يرثها مع الصفات التي يكتسبها، معتمداً في ذلك على الاختيار، بمعنى أنه يستطيع من خلال الاختيار، تحديد ما سوف يكون عليه.

يرى كيركجور في ذلك، أن جانب الضرورة في وجود الفرد، يمثل شرطاً أساسياً من أجل إمكان حرية الاختيار في المستقبل. وتوضيحاً لذلك، نجد أنه لكي يكون للفرد، وعى اختياري، لتحقيق الإمكانيات المتعددة الاختيار، يجب أن يسلم بوجوده الماضي (أى العوامل الخارجية التي تؤثر عليه)، ومن ثم يصبح لديه اختيار واستقلال مكتسب. معنى هذا، عندما يصبح للفرد اختيار في ملاءمة هذه السمات المتراكمة، يصبح قادراً على تحقيق ذاته، أعنى، تحقيق الممكنات التي تؤدي إلى تطور الذات (28). ولا يتم تحقيق هذه الممكنات - كما يرى كيركجور - إلا من خلال الممارسة الحرة للإرادة في اتخاذ القرار. فالذات تعد إمكانية قبل ظهور القرار الحر، وتتحول من هذه الإمكانية إلى وجودها الفعلي، من خلال القرار المسئول، الذي يتطور في المرحلة الأخلاقية، والذي يؤدي إلى تفرد الذات وتميزها.

« سوف لا تغير الأخلاق، الفرد إلى إنسان آخر، بل تمجده. إنه لأمر أساسي للإنسان الذي يحيا أخلاقياً، أن يصبح واعياً جذرياً بذاته، وأن لا تفلت سمة عرضية منه، هذه الأخلاق العينية، يجب ألا تمحى » (29)

إن تحقيق الفرد لذاته (بمعنى تأكيدها)، يتم بناءً على تطور وعيه الذاتي، وكذلك يتم بناءً على قدرة الوعي، على تحويل الذات من حالة الإمكان، إلى حالة الفعل. على ذلك، لا بد أن يتصل الوعي بالمثال (التخيل - اللغة)، والواقع (المباشرة العينية). حتى يتسنى له، أن يضاعف واقعية الذات، وذلك عن طريق حالات الوجود، التي تعبر عن فردانية الفرد (الاختيار والحرية، والقرار، والعزم .. إلخ). (30)

ومن ناحية أخرى، يعتبر هذا الوعي، هو العلاقة التي تتصل فيها الذات بذاتها بوصفها مركباً روحياً. فالفرد الموجود يظهر لذاته، من خلال نشاطه الفردي، الذي يعبر عن محاولة تحقيق إمكانياته، وهذه المحاولة (لتحقيق الإمكانيات) هي العملية التي يصبح فيها الفرد، ما يصير إليه في حد ذاته، وهي المعاني التي تحقق الذات بها التاريخ. بمعنى أن محاولة تحقيق الممكنات، عن طريق القرار، تعد صيرورة تاريخية للذات، وتشكل الذات - في هذه المحاولة - وقائعتها وتحدد ذاتها.

وتعتبر عملية تحقق الفرد لذاته فى المرحلة الأخلاقية، عن اكتشاف إمكانات الذات المثالية، بوصفها الأهداف التى ينبغى أن يكافح الفرد من أجل تحقيقها. وبقدر ما يكافح الفرد لتحقيق هذه المكنات، يصير إلى اكتمال تحقيق ذاته، ذلك لأن هذه الذات تعتبر ناقصة فى مجال الممكن⁽³¹⁾. وعندما يصير الفرد إلى اكتمال تحقيق ذاته، يكون فى ذلك تأكيداً لفردانيته، ولكن إلى جانب هذا، يرى كيركجور، أن الفرد الأخلاقى يهدف إلى أن يصير فرداً متمثلاً لما هو عام فى الإنسان.

ومن هنا تظهر مفارقة أساسية، فى مفهوم الأخلاق العملية عند كيركجور، وهى أن وجود الفرد فى المرحلة الأخلاقية، يعنى تأكيد فردانيته الفريدة، وفى الوقت ذاته يعبر عن الإنسان العام The Universal Man⁽³²⁾.

« إن واجب الفرد الأخلاقى، يحتم عليه، أن يبعد عن الخفاء، وأن يكشف عن ذاته فى العام، هكذا متى يرغب فى أن يظل فى الخفاء، يأثم، ويقع فى الإغراء، ولا يستطيع أن يخرج منه إلا بالكشف عن ذاته »⁽³³⁾

يكافح الفرد فى المرحلة الأخلاقية، من أجل بلوغ الغايات الأخلاقية، ويجعل من التصميم أو العزم، أساساً لهذا الكفاح. ويمثل هذا التصميم أيضاً المركز الذى يتم من خلاله التوحيد بين الأوجه المتعددة للذات، كما أنه يعد أساساً لمسعى الفرد فى تحقيق الاستمرارية، والمعنى، والتاريخ لصورته الذاتية. ويحدد الفرد، خلال هذه الصيرورة، ذاته تدريجياً تجاه المستقبل، أى تجاه ما هو ممكن، حتى يمكنه تحقيق وجوده الأصيل. بمعنى أن يحقق ذاته المتفردة فى مطلبها الأخلاقى المثالى، الذى يصير عينياً. معنى هذا، أن العملية الجدلية الدينامية لكفاح الفرد، تعبر عن محاولة الفرد، فى أن يصير ذاتاً، وتعد نشاطاً حاسماً حافلاً بالتكرار⁽³⁴⁾. ويرى كيركجور، أن الفرد، خلال هذه العملية الجدلية للكفاح، يصير ذاتاً مكتملة، حيث تجمع الذات ذاتها، بعد أن كانت مبعثرة ومتعددة فى المرحلة الجمالية، سواء كحزمة من الرغبات المتصارعة، أو كمجموعة من الإمكانيات المتعارضة. على ذلك يعد إنجاز وحدة الذات، الغاية العليا بالنسبة للفرد الأخلاقى، فى المرحلة الأخلاقية.

« تكمن منزلة الإنسان الأبدية، في قدرته على أن يكون له تاريخ، كما يكمن العنصر المقدس (الإلهي) فيه، في قدرته هو ذاته، إذا أراد أن يضيف على هذا التاريخ اتصالاً، وهو لا يستطيع أن يحقق هذا إلا إذا كان وجوده ليس خلاصة كل ما يحدث له في حياته، لكن يكون من عمله الخاص. وبتلك الطريقة، يتحول كل ما يحدث له من الضرورة إلى الحرية » (35)

إن انتقال الفرد من المرحلة الجمالية، إلى المرحلة الأخلاقية، لا يعنى أن رغبات الذات قد استبعدت تمامًا، وإنما معنى أن هذه الرغبات قد وضعت فى مكانها المناسب، بحيث لا تعد الذات مخلوقة للرغبة فحسب، بل إن الرغبة تصبح خاضعة تحت سيطرة إرادة الفرد. ولا شك، أن تأكيد الإرادة، يضيف على الممكنات المتصارعة للذات، سمة الاتصال. وفى هذا يؤكد كيركجور، على أن الفرد عندما يكون قادرًا على تأمل ممكناته، فإن كل الأشياء تظهر أمامه ممكنة، بحيث لا يجد شيئًا واقعياً أمامه.

ومثل هذا الوجود المتخيل، ينتهى بالذات إلى أن تصبح مجرد سراب، لكن عندما يتم تأكيد الإرادة، تفقد إمكانات الذات تعدديتها المتصارعة، وتبدأ فى إبراز شىء من التماسك العام (36).

يبدو من هذا، أن عملية تأكيد الإرادة، تتم من خلال فعل الفرد، الذى يعد بالنسبة لكيركجور - السمة الإيجابية التى تتطور باستمرار فى الوعى الأخلاقى، الذى يوحد بين أوجه الذات المتصارعة. ومن ثم يصبح لمصطلح "الفعل" Action المعنى نفسه والاستخدام لمصطلحات مثل:

الاختيار، والندم، واليأس، والقرار، والإرادة تعنى قيمة أخلاقية عند كيركجور. ولا تكمن القيمة الأخلاقية للفعل أو الاختيار فى نتائجه، وإنما تكمن فى أهدافه، أى أنها تكمن فى الشىء الذى من أجله يتم الفعل. على ذلك، نلاحظ أن مفهوم التطور الأخلاقى عند كيركجور، يعبر عن أخلاق التحقيق الذاتى، ولا يعبر عن أخلاق النتائج، كذلك لا يعبر عن أخلاق الواجب. وهذا يرجع إلى أن الفرد، لا يحصل على

حياة ذات معنى، من خلال هبة مقدمة إليه، وإنما يحصل عليها، من خلال الكفاح، الذى يمثل مهمته الأساسية لتحقيق أهدافه الأخلاقية.

ولتوضيح العلاقة بين مصطلحات الفعل، والاختيار، والإرادة، لابد من الوقوف على ملاحظات كيركجور عن "الزواج"، والتي من خلالها، تظهر كيفية إنجاز وحدة الذات (37).

يرى كيركجور، أن الحب فى الزواج يصبح واجبًا، ويعتبر كل منهما فى المرحلة الجمالية متناقضًا، ذلك لأن الفرد يحيا فى المرحلة الجمالية، مستمتعًا برغبة لحظية، وتصبح ذاته مبعثرة فى تعددية رغبات متصارعة، لكن وحدة الذات، تمثل فى المرحلة الأخلاقية، الهدف الذى يكافح من أجله الفرد. على ذلك يعد "الزواج"، اللحظة النموذجية، التى تتحقق فيها وحدة الذات، وذلك من خلال إرادة المحب، فى تحقيق هذا الزواج. ومن ناحية أخرى، يضىف الزواج، المسؤولية على الفرد، ومن ثم يتحول الحب إلى واجب، ويصبح تعيينًا ذاتيًا.

« لا يكون الحب بالنسبة لى فى جانب، والزواج فى جانب آخر، بل على العكس، إن الواجب يجعل الحب، المناخ الحقيقى، وكذلك يجعل الحب، الواجب مناخًا حقيقياً، ويكمن الكمال فى هذه الوجوه » (38)

وهنا تظهر العلاقة بين الفعل، والاختيار، والإرادة، من خلال صيرورة الذات، التى تعبر عن انسجام الفرد ذاته بذاته، وبالآخرين، وكيفية اتصال هذه الذات بصيرورتها (39). وتكتسب هذه الصيرورة الذاتية عينيتها عن طريق فعل الحرية، التى يطلق عليها كيركجور "استسلام الاختيار" The Choice of surrender. بمعنى أن الفرد يهتم بالقرار، الذى يمنحه اتصال ذاته بذاته، وذلك عندما يتحول الحب إلى واجب عن طريق الزواج (الذى يعبر عن التزام أخلاقى بصفة عامة).

معنى هذا، أن الفرد يؤكد إرادته، من خلال فعل تمييزه لذاته، عن رغباتها فى المرحلة الجمالية، حيث يصبح هذا التمييز أكثر تحديداً بين الذات، واللذات، عن

طريق مضاعفة، قدرة وعى الفرد، على تأكيد الإرادة من خلال القرار. ومن ثم يدرك الفرد، أنه لم يكن متأملاً رغبته فحسب، لكنه يستطيع أن يصبح مركز قرار التحديد الذاتي.

ومن ناحية أخرى، يرتبط تأكيد الفرد لإرادته، بتطور معنى الأخلاق، حيث إن تأكيد الإرادة في المرحلة الأخلاقية، يتم عن طريق معان أخلاقية. فعندما يمارس الفرد إرادته، يصبح وجوداً، تعلم معيار أخلاق مجتمعه، الذي يوجه إرادته نحو الإمكانيات، التي تعد أكثر ملاءمة للتحقيق، وكذلك يساعده مجتمعه، في كيفية السيطرة على الرغبات⁽⁴⁰⁾، ومن ثم يؤكد فردانية ذاته.

وتعتبر عملية تأكيد الإرادة، عن أن قدرة الفرد على اتخاذ القرار، تعد عملية جوانية (داخلية)، ذلك لأن الفرد يهتم داخلياً بما هو عليه، وما ينبغي أن يصير إليه.

« حقاً، إن الأخلاقي عظيم الشخصية، يهدف إلى تحقيق ذاته. إنه يكافح ليطور ذاته، بأقصى جهدٍ لقدراته »⁽⁴¹⁾

يعتقد كيركجور، أن مسئولية الفرد تتعلق بهدفه (أو قصده) الأخلاقي، ولا تتعلق بنتيجة سلوكه (فعله الخارجي). في الواقع، يجب أن يظل الفرد، في تمايز عن نتائج قراراته، بحيث يركز انتباهه التام على قصده الداخلي. ومن هنا، تعد الجوانية بالنسبة لكيركجور، المقوم الرئيسي للأخلاق، وتعنى مدخلاً روحياً للذات، ونوعاً من الاهتمام الاستبطاني لذلك يستلزم عنها تعهداً جدياً يتعلق بحياة الفرد، واهتماماً من أجل ما يصير إليه⁽⁴²⁾. على ذلك، تعد الجوانية (الفعل الداخلي، وليس الفعل الخارجي) هي المكونة للذات، ولا تعتبر حالة للوجود، توحى بمعيار سلوك، من السهل التعرف عليه. معنى هذا، إن الذات تظهر للآخرين في سلوك واضح المعالم، لكنها تظهر لذاتها بفعل جواني، يطلق عليه كيركجور:

« حالة وجود الجوانية »⁽⁴³⁾

ومن ناحية أخرى، تعد واقعية الفرد الزمانية، نموذجاً لكل حالات الجوانية،

التي تميزها حالات التفرد الانفعالية والإدراكية في الوجود، وذلك من خلال اتصال الذات ذاتها بذاتها، في وعي ذاتي مضاعف. ويرى كيركجور في ذلك أن الوجود الجواني، الذي يتضمن النشاط القصدى للفرد، يتصل بالزمان اتصالاً محكماً، بمعنى أن التوترات الثلاثة للزمان (الماضي، والحاضر، والمستقبل)، ترتبط بالنسبة للأخلاقى في وحدة ذات أهمية كبرى.

« إنك مع قدرتك العظيمة على الملاحظة، بالتأكيد سوف تسلم بأننى دقيق فى صنع الملاحظة العامة. إن الناس منقسمون إلى طبقتين عظيمتين: هؤلاء الذين يحبون غالباً فى أمل، وأولئك الذين يحبون غالباً فى ذكرى. وكل من الطبقتين لديهم علاقة خاطئة بالزمان. إن الفرد المتمتع بالصحة، يحيا فى كل من الأمل والذكرى فى الوقت ذاته، وتلك الوسيلة فحسب تكتسب حياته حقيقة واتصالاً جوهرياً » (44)

تظهر أهمية التوترات الزمانية الثلاثة، بالنسبة للفرد الأخلاقى، من خلال العلاقة المتبادلة بينها، حيث تشكل وحدة غير منفصلة، متصلة مع مركبات الذات. فيتصل الماضى بواقع الذات، ويتصل المستقبل بإمكان الذات، ويتصل الحاضر بلحظة قرار الذات.

ومن ناحية أخرى، توضح القرارات التى يتخذها الفرد فى حاضره، هذه العلاقة، ذلك لأن عملية صنع القرار، ترتبط بماضى الفرد، وتتجه ناحية مستقبله. معنى هذا، أن واقع الذات (الماضى)، يتصل بممكناتها (المستقبل) من خلال القرار (الحاضر). إن العلاقة بين وحدة التوترات الثلاثة للزمان، ومركبات الذات، هى المثال الذى يكافح من أجله الفرد الأخلاقى (45).

« إن التاريخ الداخلى هو فقط التاريخ الحقيقى، لكن التاريخ الحقيقى يتنافس الفرد فيه مع الزمان. إذن، يكتسب الزمانى، وكل لحظة قصيرة، بهذه الحقيقة، واقعاً هائلاً » (46).

وبناءً على هذا الاتصال المحكم، بين التوترات الثلاثة، وبين مركبات الذات

(من خلال ممارسة حالات الجوانية)، تعد ممارسة القلق، أحد الأشكال الرئيسية للجوانية الذاتية عند كيركجور. وللوقوف على العلاقة، بين ممارسة الجوانية للقلق، وعلاقة الذات بالزمان، لابدّ أولاً توضيح رؤية كيركجور عن "القلق".

يتميز كيركجور بين نوعين للقلق: قلق ذاتي، وقلق موضوعي. القلق الموضوعي يظهر من خلال علاقة الفرد المحكمة بالجنس البشري، حيث يعبر عن مدى تأثير الجنس البشري على الفرد. أما القلق الذاتي، فيشير إلى مدى استجابة الفرد لهذا التأثير. فالفرد في محاولة تحقيق ذاته، لا يبدأ من بداية جديدة، ولكن يجد البداية داخل تاريخ الجنس البشري، ذلك لأن التاريخ يشتمل على الأفعال الجمعية للأفراد. ومن ناحية أخرى، يتكيف الفرد مع هذه الأفعال، ومن ثم يساهم في هذا التاريخ.

معنى هذا، أن ما ترثه الذات من وقائعها، الناتج عن تأثير البيئة، يعد شرطاً ضرورياً، لتكيف معه الذات في وجودها، ويعد عاملاً أساسياً لإسهامها في تاريخ الجنس البشري.

ويؤكد كيركجور، على أن التاريخ يساهم في وجود زيادة كيفية في القلق الذاتي، الذي ينتج عن القلق الموضوعي. لكن مع ذلك يختلف اهتمام الفرد في القلق الذاتي، عن اهتمامه في القلق الموضوعي، حيث إنه لا يهتم بتطور القلق في الجنس البشري، لكنه يهتم باكتشاف الطريقة التي تمارس بها الذات القلق⁽⁴⁷⁾. وعندما تمارس الذات القلق، تستجيب لمؤثرات الجنس البشري، وهذا يؤدي إلى مواجهتها مع العدم، الذي يعتبر موضوعاً للقلق. ويعود الفرد حتمياً إلى ذاته، إلى إمكاناته، وموقفه المتناهي في العالم، وذلك من خلال استسلامه للقلق، والحياة فيه. وعندما يتواجه الفرد مع القلق، يدرك معنى الإمكانية، ومعنى تناهي وجوده العيني. معنى هذا، أن القلق يتعلق بما يجب أن يصير إليه الفرد، وما يمكن أن يصير إليه⁽⁴⁸⁾.

ووفقاً لهذه الخاصية، يظهر تمييزاً آخر بين القلق Dread، والخوف Fear، فالخوف، هو خوف من الكائنات في العالم، أما القلق، فهو قلق على الذات.

« نادرًا ما نجد علم النفس يدرس مفهوم القلق، ومن هنا لابد أن ألفت النظر إلى، أنه يختلف عن الخوف، وعن المفاهيم المتشابهة التي تشير إلى شيء معين أو محدد، لأن القلق هو حقيقة الحرية بوصفها إمكانية الإمكان »⁽⁴⁹⁾

ينظر كيركجور إلى القلق، على أنه إمكانية، حيث يعتبره - من وجهة النظر الأخلاقية - مواجهة من أجل الخير أو من أجل الشر. بمعنى أنه لا يتصل بأى شيء محدد، وهو نتيجة اللاشئ الفعلى. وهنا يمكن تحديد ممارسة الجوانية للقلق، وعلاقتها بمركب الذات والزمان.

« يوجد في حالة البراءة، أمن وهدوء، لكن في الوقت نفسه، يوجد شيء ما مختلف، الذي لا يعد خلافًا ونزاعًا، ذلك لأنه لا يوجد شيء ما يكافح معه، إذن ما هو؟ أنه لا شيء، لكن ما التأثير الذي يقدمه اللاشئ؟ إنه يولد القلق »⁽⁵⁰⁾

يرتبط القلق بثلاث مسائل متصلة هي:

إمكان الذات، ومستقبل الذات، وحرية الذات.

فمن حيث علاقته بالإمكان، يوحى للفرد باهتمامه بوجوده، وممكانته، فضلاً عن أنه "الإمكانية المرعية لقدرة الوجود"⁽⁵¹⁾. على ذلك يكون متصلاً "بعدمية الإمكانية"⁽⁵²⁾، كذلك يعد أول انعكاس للإمكانية.

وتتحدد علاقة القلق بالمستقبل، من حيث إنه في المرحلة الأخلاقية، ربما تتم ممارسته من خلال مسؤولية الفرد، من أجل تحقيق إمكاناته. وهذا ما يراه كيركجور بأن القلق هو اليوم التالي.

ويمكن تحديد علاقة القلق بالحرية - كما يراها كيركجور - في أن القلق هو "إمكان الحرية"⁽⁵³⁾، ومن جهة أخرى، "أن إمكانية الحرية تعلن عن ذاتها في القلق"⁽⁵⁴⁾، بمعنى أن القلق تتم ممارسته، عندما تواجه الذات حريتها.

ومن هنا يؤكد كيركجور، على أن العلاقة بين بنية الذات، وطبيعة الزمان تقوم على أساس العلاقة بين الإمكان، والمستقبل، والحرية. أى أن هذه العلاقة هي التي تؤدي إلى تحليل مفهوم القلق⁽⁵⁵⁾.

فإن كان كيركجور يرى أن هناك ثلاثة مركبات رئيسية للذات، وهى الواقع، والإمكان، والحرية، فإن القلق يظهر كنتيجة إدراك الذات لحريتها فى تحقيق إمكاناتها. ويمكن القول أيضاً: أن القلق، يعد نتيجة لوعى الذات، الذى يواجه فى الحاضر، المستقبل تجاه ما تريد تحقيقه بحرية.

وبناءً على ذلك، من الممكن الوصول إلى تحديدات القلق التالية:

يعتبر القلق، المواجهة الذاتية مع مستقبل الذات، حيث يوحد بين إمكاناتها المتنوعة، التى يمكن تحقيقها خلال الحرية⁽⁵⁶⁾. والفرد الموجود أخلاقياً، فى مواجهة تحقيق الإمكانية الذاتية (من أجل الخير أو الشر) يحيا خلال الحرية القلقة. وهذا يمثل شكلاً آخر للجوانية.



4. حدود الرؤية الأخلاقية

يرى كيركجور، أن بؤرة اهتمام الفرد الأخلاقي، تتركز حول ذاته، حيث يهدف إلى تطور وعيه الذاتي أخلاقياً، كي يحقق ذاته. وفي هذا يلتزم الفرد أخلاقياً بمبادئ تتجاوز ذاته، يهدف إلى تحقيقها، حتى يستطيع تحقيق ذاتاً أكثر عينية. ولتوضيح هذا، يفترض كيركجور، أن أى فرد يشتمل على إمكانية أن يصير ذاتاً، وهى أساس لوجوده العيني، ومن خلالها يحقق ذاته الأصلية. واكتشاف هذه الإمكانية، يتم عن طريق قدرة الفرد على فهم ذاته، التى تؤدى إلى اكتشافه للإمكانية فى ذاته. ومن ثم يفترض أن هذه الإمكانية حاضرة فى الآخرين.

إلى جانب هذا، يفترض كيركجور أيضاً، أن الهدف الأساسى للوجود الأخلاقى بوصفه تطوراً للذاتية، يتطلب من الفرد أن يخضع ذاته، إلى المتطلبات العامة للموضوعة بواسطة المجتمع (57).

« يعد الأخلاقى فى حد ذاته العام، وبوصفه العام، يعد الواضح الظاهر، والفرد بوصفه مباشراً، وبوصفه وجوداً فيزيائياً ونفسياً، يعتبر الحجب والإخفاء، على هذا تعد مهمة الأخلاقى، إلغاء الإخفاء، وإظهار ذاته فى العالم » (58)

تتحقق إمكانية الفرد، فى أن يصير ذاتاً، على أساس تطور وعيه الذاتى، الذى يعتمد على علاقته بالعام. ويمكن تحديد هذه العلاقة بين الوعى (عملية الفهم الذاتى للفرد)، والعام (المبادئ الخلقية التى تعلو على الذات، والموضوعة بواسطة المجتمع)، من خلال علاقة الفرد الأخلاقى بالآخر. فالفرد الأخلاقى عن طريق ما هو عام يصير ذاته، والآخرفى نفس الوقت، بحيث تمثل العائلة، "الجنس البشرى" معنى مترادفاً لخلفية وعى الأخلاقى فى فهمه لذاته. على ذلك تعد إمكانات، يتصل من خلالها الوعى بما هو عام (59).

« تكمن المهمة التي يهين لها الفرد الأخلاقي ذاته، في تحويل ذاته إلى إنسان عام »⁽⁶⁰⁾

يرى كيركجور، أنه عندما يصير المطلب الأخلاقي العام، مطلبًا ذاتيًا، يمكن رؤية ما هو عام وجوديًا، وذلك من خلال علاقة العام بذاتية الفرد، وواقعه الخاص، بحيث يصير هذا العام هدفًا أخلاقيًا لكل فرد، ويؤدي إلى مضاعفة وجوده الذاتي. ومن هنا يمثل العام، المعانى التي يصير من خلالها الفرد ذاتًا.

« يعد تحقيق الفرد لذاته، الهدف الذى يكافح من أجله، ومن هنا يعد اهتمامه الأخلاقي، حول أى حقيقة أخرى سوء فهم، ذلك لأن السؤال الوحيد عن الحقيقة التي تتصل بالموضوع الأخلاقي اتصالاً وثيقاً، هو السؤال عن الحقيقة الواقعية الخاصة للفرد »⁽⁶¹⁾

من هذا المنظور الكيركجورى، يتحدد الهدف الأخلاقي العام للفرد، فى محاولته لتحقيق ذاته أو وجوده العيني الفردى، حيث يدرك عن طريق مضاعفة جوانبية وجوده العيني الفريد، ما هو أساسى فى الوجود الإنسانى فى حد ذاته. فالمهمة الأخلاقية بالنسبة للفرد، هى أن يصير ذاتاً، أى أن يختار تحقيق "الذات المثالية"، التى يمتلك من خلالها الإمكانية فى أن يصير إنساناً عاماً، أو إنساناً نموذجياً.

وفى تحقيق الفرد لهذه الإمكانية، يصبح مركباً من العمومية "Universality" والفردانية Individuality، من العام والخاص.

خلاصة هذا، أن تحقيق الفرد الأخلاقي لما هو عام، يعنى التزامه بتحقيق وعيه الذاتى المثالى فى الوجود، وهذا يستلزم شمولية الأخلاق، التى يعبر عنها كيركجور فى أنها تنطبق على كل فرد، فى كل لحظة.

ومع ذلك، فالعام، الذى يجب أن يرتبط به الفرد فى المرحلة الأخلاقية، ليس هو القانون الأخلاقي العام، الذى يضعه الفكر المجرد، بل هو العام الذى يعبر عنه واقع الإنسان فى حد ذاته. ومن ناحية أخرى، تشتمل فكرة الواجب Duty على الكيفية التى يختار الفرد، عن طريقها ما هو عام (من خلال اختياراته،

وقراراته، وأفعاله).

وفى ذلك يرى كيركجور، أن فعل الواجب، يتطلب معاناة الفرد، وذلك لأن فعله لا يتم من خلال منظور مجرد، وإنما يتم من خلال منظور عيني. وهذا يؤكد على أن طبيعة الواجب، تعبر عن استقلالية الفرد الأخلاقي. أي أن واجب الفرد فى اتباع ما هو عام، ينشأ عن ضرورة واقعية، أكثر من أن يمثل إكراهًا خارجيًا. ومن هنا، يعد هذا الواجب إلزامًا، لأنه ينتمى إلى مسئولية الفرد تجاه ذاته.

« من الغريب، أن توحى كلمة "الواجب" بعلاقة خارجية، ذلك لأن الأصل الفعلى للكلمة، يشير إلى علاقة داخلية بالنسبة لما هو إزام لى، ليس لأنى هذا الفرد المحظوظ، ولكن وفقًا لحقيقة طبيعتى. بكل تأكيد، أن الواجب، يشارك فى أعظم علاقة جوانية بذاتى. بمعنى أنه ليس خضوعًا، بل هو التزام» (62).

يرى كيركجور، أن طبيعة الواجب، تنشأ من التزام داخلى، يشير إلى علاقة جوانية، تربط الذات بذاتها (63). وعلى هذا الأساس، يعد اختيار الذات، هو بداية المرحلة الأخلاقية، حيث يتصل بتطور الذات، من خلال واجب الفرد فيما يفعل لتحقيق هذه الذات. ومن هنا يصبح كل من الاختيار، والواجب مكملين لبعضهما جديًا.

إضافة إلى ذلك، يرى كيركجور، أن الفرد يصبح على علاقة بالله فى المرحلة الأخلاقية، عن طريق التزامه الأخلاقى العام، بمعنى أن علاقة الفرد بالله، هى الهدف الذى يأمن من خلاله أن يظل التزامه الأخلاقى وفياً لتحقيق مثله. ومع ذلك توجد غاية داخلية، للفرد الأخلاقى، تعبر عن ذاته الخاصة. لكن العلاقة الأخلاقية بالله تنمو عن طريق الواجب الأخلاقى، والالتزام الدينى. معنى هذا، أن الواجب الأخلاقى يصبح مقدسًا.

« إن الأخلاقى هو العام، وفى حد ذاته يعد مقدسًا » (64)

من خلال هذا التفسير، يتضح أن النموذج الأخلاقى للوجود، يفترض، أن الإنسان قادر على فهم التزامه الأخلاقى، ولديه قدرة على تحقيق هذا الالتزام،

وكذلك يتضح أن هذا النموذج يبدأ فى الانحلال فيما يتعلق بالكفاح من أجل تحقيق المثل، ذلك لأن الفرد - فى المرحلة الأخلاقية - لا ينجح فى تحقيق التوازن داخل ذاته. وعلى ذلك يصبح الطريق مفتوحاً أمام المرحلة الدينية.

ومن هنا يرى كيركجور، أن الذات تتشكل من خلال الله، وهذا يعبر عن نقص الوجود الأخلاقى الذى يسعى إلى تحقيق ذاته الخاصة دون إدراك اعتماده على الله.



مصادر ومراجع الفصل الخامس

- (1) د. إمام عبدالفتاح، كيركجور رائد الوجودية، ج2 ص 236.
- (2) M.C., Taylor, Kierkegaard's Pseudonymous Authorship, P. 136.
- (3) J, Collins, The Mind of Kierkegaard, P. 80.
- (4) J.W. Elrod, Being and Existence, P. 126.
- (5) S, Kierkegaard, Either / or, V. II. P. 263.
- (6) Ibid., P. 218.
- (7) G, Stack, Kierkegaard's existential ethics, P. 91.
- (8) S, Kierkegaard, Either/ or, V. II. P. 218.
- (9) Ibid.
- (10) Ibid., PP. 219-220.
- (11) Ibid.
- (12) د. إمام عبدالفتاح، كيركجور رائد الوجودية، ج2 ص 241.
- (13) J.W. Elrod, Being and Existence, P. 133.
- (14) S, Kierkegaard, Either / or, V. II. P. 173.
- (15) Ibid., P. 180.
- (16) G, Stack, Kierkegaard's existential ethics, P. 98.
- (17) S, Kierkegaard, Postscript, P. 350.
- (18) J.W. Elrod, Being and Existence, P. 137.
- (19) S, Kierkegaard, Either / or, V. II. P. 255.
- (20) G, Stack, Kierkegaard's Existential ethics, P. 125.
- (21) S, Kierkegaard, Either / or, V. II. P. 256.
- (22) M.C., Taylor, Kierkegaard's Pseudonymous Authorship,

- P. 195.
- (23) S, Kierkegaard, Either / or, V. II. P. 221.
- (24) M.C., Taylor, Kierkegaard's Pseudonymous Authorship, P. 196.
- (25) S, Kierkegaard, Either / or, V. II. P. 260.
- (26) د. إمام عبدالفتاح، كيركجور رائد الوجودية، ج2 ص 254.
- (27) M. C., Taylor, Kierkegaard's Pseudonymous Authorship, PP. 202-203.
- (28) G, Stack, Kierkegaard's existential ethics, P. 139.
- (29) S, Kierkegaard, Either / or, V. II. PP. 257-258.
- (30) G, Stack, Kierkegaard's existential ethics, P. 141.
- (31) M, Taylor, Kierkegaard's Pseudonyoms Authorship, P. 202.
- (32) G, Stack, Kierkegaard's existential ethics, P. 145.
- (33) S, Kierkegaard, Fear and Trembling, P. 91.
- (34) G, Stack, Kierkegaard's existential ethics, P. 146.
- (35) S, Kierkegaard, Either / or, V. II, PP. 245-246.
- (36) M, Taylor, Kierkegaard's Pseudonymous Authorship, P. 205.
- (37) Ibid., P. 202.
- (38) S, Kierkegaard, Either / or., V. II, P. 150.
- (39) G, Stack, Kierkegaard's existential ethics, P. 149.
- (40) M, Taylor, Kierkegaard's Pseudonymous Author ship, P. 209.
- (41) S, Kierkegaard, Postscript, P. 121.
- (42) G, Stack, Kierkegaard's existential ethics, P. 154.
- (43) Ibid.

- (44) S, Kierkegaard, Either / or, V. II, PP. 144-145.
- (45) M, Taylor, Kierkegaard's Pseudonymous Authorship, PP. 214-215.
- (46) S, Kierkegaard, Either / or, V. II, P. 137.
- (47) M, Taylor, Kierkegaard's Pseudonymous Authorship, P. 218.
- (48) G, Stack, Kierkegaard's existential ethics, P. 156.
- (49) S, Kierkegaard, The concept of Dread, P. 33.
- (50) Ibid., P. 38.
- (51) Ibid., P. 40.
- (52) Ibid., P. 69.
- (53) Ibid., P. 139.
- (54) Ibid., P. 66.
- (55) M, Taylor, Kierkegaard's Pseudonymous Authorship, P. 221.
- (56) Ibid.
- (57) G, Stack, Kierkegaard's existential ethics, P. 163.
- (58) S, Kierkegaard, Fear and Trembling, P. 91.
- (59) Adi Shmuêli, Kierkegaard and Consciousness, PP. 36-37.
- (60) S, Kierkegaard, Either / or, V. II, PP. 265-266.
- (61) S, Kierkegaard, Postscript, P. 287.
- (62) S, Kierkegaard, Either / or, V. II, P. 259.
- (63) M, Taylor, Kierkegaard's Pseudonymous Authorship, P. 224.
- (64) S, Kierkegaard, Fear and Trembling, P. 78.